

الروايات الأسطورية لبناء مدينة المهدية الفاطمية في تونس

الباحث/ أحمد حيدر الخليل (*)

إشراف :

محمود إسماعيل عبد الرزاق

ارتبطت معظم المدن الإسلامية بقصص وأساطير تخص مرحلة التأسيس والبناء، وقد وجد ذلك في المشرق والمغرب من حواضر العالم الإسلامي، ويؤكد الدكتور محمود إسماعيل أن رسوخ هذه الميثولوجيا في بلاد المغرب، في العصور الإسلامية عموماً والمتأخرة على وجه الخصوص، يرجع إلى انتشار التصوف حيث أصبحت الطرق الصوفية ديناً شعبياً^(١)، كما شاعت الكرامات والشعوذة والسحر إلى حد اعتبارها علماً من العلوم، وقد تحدث عن ذلك ابن خلدون وعداً أن الاعتقاد بهذا التأثير ((لا مريّة فيه بين العقلاء))^(٢). جاء هذا في عصر الانحطاط حيث غاب العقل، وقد لعب البعد الديني دوراً كبيراً في رسوخ هذه الأساطير في مخيلة

(*) طالب دكتوراه - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة عين شمس .

١- محمود إسماعيل: حواضر المغرب الإسلامي في ضوء الميثولوجيا، مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الثالث، الكويت ٢٠٠٧م، ص ٩٤، حيث يقدم هذا البحث تصوراً وافياً عن الميثولوجيا ودورها في الروايات التاريخية فيما يخص نشوء الحواضر الإسلامية.

٢- ابن خلدون: المقدمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٤٩٧.

المغاربة في العصور الوسطى^(١)، ولكن يجب القول أن لهذه الروايات والأساطير دوراً كبيراً في دراسة التاريخ بشكل عام إذا أخذ بالنقد العلمي القائم على المنهجية الصحيحة ، وذلك لما تحتويه على مادة يمكن الاستفادة منها في كثير من المواضع .

وإذ جرى تأسيس تلك المدن وفق شروط محددة - كصلاحية المكان للعمران، وتوافر المياه، والحماية الطبيعية- فقد عكست الميثولوجيا تلك الشروط عينها، وأسهم المنجمون وقراء الطالع في اختيار أماكن الاختطاط حسب ما تنبئ به النجوم عن المستقبل السعيد لسكان المكان^(٢).

تلك الأساطير تدور حول تمجيد وتعظيم المكان من جهة والقائد الرائد من جهة أخرى وما ينسب إليه من بركة الآلهة وقوى غيبية خارقة^(٣)، وهذا ملاحظ في رواية تأسيس مدينة القيروان من قبل القائد عقبة بن نافع الفهري وما دار حولها من روايات كثيرة^(٤)، وكذلك حدث في المشرق أثناء بناء الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لعاصمته الجديدة بغداد^(٥) ، فقد نسجت الأساطير بروايات متعددة حول بناء تلك المدينة، واستمرت هذه العادة في المغرب عند تأسيس مدينة فاس وغيرها من المدن المغربية خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى^(٦) ، ولكن بلا شك يمكن القول أن تلك الأساطير ذات

١ - محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ٩٣.

٢ - المرجع نفسه، ص ٩٥.

٣ - حباتي محمد: خصائص الفن المغربية في عصر الدول المستقلة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس ١٩٨٧م، ص ٢٦٨.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبد المنعم العامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٩١.

٥ - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد ط ٢، عن لندن ١٩٠٦م، ص ١١٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٤م، ج ٥، ص ٥٥٨.

٦ - محمود إسماعيل: حواضر المغرب الإسلامي، ص ١٠٢.

الروايات المتعددة والتي ذكرتها المصادر، تحمل ضمن ثناياها الكثير من الحقائق التاريخية^(١).

لا تعد مدينة المهديّة الفاطمية في تونس وجود رواية أسطورية لتأسيسها؛ فهي تشترك مع معظم مدن المغرب في هذه الخاصية، ويذكر ياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) صاحب كتاب (معجم البلدان)، في رواية تأسيس المهديّة ما يأتي: "وقال بعض أهل المعرفة بأخبارهم في سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م خرج المهدي بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعا يبني فيه مدينة خوفا من خارج يخرج عليه، وأراد موضعا حصينا حتى ظفر بموضع المهديّة وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند، فتأملها فوجد فيها راهبا في مغارة فقال له بم يعرف هذا الموضع فقال هذا يسمى جزيرة الخلفاء فأعجبه هذا الاسم فبناها وجعلها دار مملكته.."^(٢).

هذه الرواية تعدّ من أشهر الروايات التي يوجد فيها خيال أسطوري لبناء مدينة المهديّة مع العلم أن البكري: (المتوفى: ٤٨٧هـ/ ١٠٩٧م) صاحب كتاب (المسالك والممالك)، وكذلك ابن حماد (المتوفى: ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) صاحب كتاب (أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم)، واللذان يعتبران من أقدم المؤرخين الذين تحدثوا عن بناء المهديّة لم يذكرّا كل هذه التفاصيل التي ذكرها الحموي، مع أن الحموي اعتمد على رواية البكري ولكنه أضاف عليها قصة الراهب الذي وجده المهدي أثناء بحثه عن موضع للبناء، ويشترك

١ - حباتي محمد: المرجع السابق، ص ٢٦٩.

٢ - معجم البلدان، منشورات دار صادر، بيروت ١٩٨٤م، ج ٥، ص ٢٣٠.

معه في الرواية نفسها القزويني (المتوفى: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، صاحب كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد)، حيث يقول: ((فوجد فيها راهباً في مغارة فسأله عن اسم الموضع فقال: هذه تسمى جزيرة الخلفاء. فأعجبه هذا الاسم فبنى بها بناء وجعلها دار مملكة))^(١)، وربما يكون قد أخذها عن الحموي لأنها تذكر معظم التفاصيل التي ذكرها الحموي، ومن الملاحظ أن قصة الراهب المتعبد في مكان مدينة ما قد أوردها المؤرخون بما يشبه التواتر في سياق بناء معظم المدن المغربية مثل (تونس و فاس)^(٢)، وهي توجي بقداسة المكان وباستمرارية وظيفته الدينية^(٣). وفي رواية ابن عذارى المراكشي (المتوفى: بعد ٧١٢هـ/١٣١٢م) نجد قوله: ((وفيها، خرج عبيد الله من مدينة رقادة إلى تونس وقرطاجنة ونواحي البحر، يرتاد موضعاً يتخذ دار مملكته. فوق اختياره على جزيرة جمة فابتدأ ببنائها، وهي التي تسمى بالمهدية)).^(٤)

وهنا نلاحظ توافقاً بين الروائتين في البداية، إلا أن ابن عذارى لم يتحدث في روايته عن الخارجي الذي سيخرج على المهدي ودولته، في حين أن معظم الروايات الأخرى تحدثت عن ذلك، مثل رواية القاضي النعمان الذي ينقل قولاً للمهدي: ((هذا كله أعد لساعة من نهار))^(٥)، وكذلك رواية ابن الأثير في الكامل حيث يقول: ((خرج المهدي بنفسه إلى تونس وقرطاجنة وغيرهما يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة له، وكان يجد في الكتب خروج أبي يزيد على دولته، ومن أجله بنى المهدي فلم يجد موضعاً

^١ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت دت، ج ١، ص ٤٨٩.

^٢ - حباتي محمد: خصائص المدن المغربية، ص ٢٦٨.

^٣ - المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

^٤ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨، ج ١، ص ٧١.

^٥ - افتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٥م، ص ١٩٩.

أحسن ولا أحسن من موضع المهديّة، وهي جزيرة متصلة بالبر كهية كف متصل بزند فبناها وجعلها دار ملكه...^(١)، وهناك عدة روايات تتحدث عن النبوءة التي ذكرها عبيد الله المهدي أثناء خروجه للبحث عن موضع لحاضرة جديدة تحميه من ثورة صاحب الحمار وتهديدها للدولة الفاطمية في المغرب، وهذا ما أشار إليه التجاني أيضاً في روايته عن بناء المدينة حيث يقول: ((وقد كان عنده علم حدثاني بقيام قائم على ذريته...))^(٢)، وعدد من المؤرخين يذكر أن هذه النبوءة من المهدي الفاطمي قد أفصح عنها بعد الانتهاء من البناء حيث أشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله: ((فلما ارتفع السور أمر راميا أن يرمي بالقوس سهماً إلى ناحية المغرب، فرمى سهمه فسانتهى إلى موضع المصلّى فقال إني موضع هذا يصل صاحب الحمار يعني أبا يزيد الخارجي لأنه كان يركب حماراً...))^(٣).

وذكر ذلك أيضاً القزويني^(٤) والمقرئزي^(٥) وغيرهم، ويضيف التجاني على هذه الرواية قوله: ((أنه أمر بقياس تلك الرمية فبلغت مائتين وثلاثة وثلاثون ذراعاً، فقال المهدي هذا منتهى ما تقيم المهديّة في أيدينا من السنين...))^(٦).

- ١ - الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٤٨١.
- ٢ - التجاني: الرحلة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا ١٩٨٠م، ص ٣٢١.
- ٣ - المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٨٢.
- ٤ - آثار البلاد وأخبار العباد، ج ١، ص ٤٩٠.
- ٥ - اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٥م، ج ١، ص ٧٠.
- ٦ - التجاني: الرحلة، ص ٣٢١، وكذلك ينكرها ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، المكتبة العتيقة، تونس ١٩٦٧م، ص ٥٣. ويظهر أن مثل هذه الأساطير وغيرها لم تظهر إلا بعد بناء المهديّة، وبعد انهزام أبو يزيد النكاري، على أبواب المدينة، وقد أخطأ مروجوها في بقاء المهديّة بيد الفاطميين ب(٢٣٣) سنة، لأن هذا الرقم لا ينطبق على الواقع، لأن المهديّة بقيت بأيديهم من سنة ٣٠٨هـ حتى سنة ٣٥٨هـ بعد أن انتقلوا إلى مصر، أي ٥١ سنة فقط، وحتى لو اعتبرنا العصر الصنهاجي تابعا لملك الفاطميين حتى سنة ٤٤٣هـ فإننا لا نظفر بالنتيجة التي يرمي إليها مخترعو الأسطورة. انظر: محمد المرزوقي: المهديّة وشاعرها تميم، المعهد القومي للآثار، تونس ١٩٨٠م، ص ١٨.

وتلك الروايات التي تشير إلى النبوة قد أخذت بعداً دينياً مذهبياً، وهذا يدخل ضمن ما يسمى بعلم الحدثن^(١) المعروف في الفكر الشيعي الإسماعيلي والذي يمثل ما يمكن أن نسميه بالتاريخ المستقبلي للأئمة إذا جاز استخدام هذا المصطلح، وقد اختصوا به دون غيرهم^(٢)، وأعطى ذلك للمهدي الفاطمي صفات التنبؤ بالأحداث المستقبلية التي ستقع عليه وعلى أبنائه من بعده، وأعطى لحاضرته الجديدة قداسة خاصة، وبذلك ظهر البعد الديني المذهبي جلياً واضحاً في الروايات المتعددة لبناء الحاضرة الجديدة للفاطميين.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أسهم المنجمون وقراء الطالع في اختيار المكان الجديد، ظهر ذلك فيما أورده ابن حماد حيث يقول: ((وكان له بصر بعلم النجوم فاخطتها بطالع الأسد لأنه برج ثابت، ولذلك ثبتت ، ولأنه بيت الشمس الذي هو دليل الملوك.))^(٣)، وهنا ينسب إلى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي معرفته بعلم النجوم والأبراج وهذا ما أكدته القاضي النعمان أيضاً إلى أن الخلفاء الفاطميين كانوا علماء بالنجوم لكنهم غير مؤمنين بتأثيرها بل يطلبونها لما فيها من تدليل على توحيد الله^(٤)، وهذا التقليد في اختطاط المدن، اتبع منذ العصور القديمة، فقد عرفه سكان بلاد الرافدين واليونان والرومان وورثه المسلمون عنهم^(٥)، وذلك لما فيه من بعد ديني يطغى على المكان

^١ - سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٧٩م، ج ٣، ص ٩٢.

^٢ - القاضي النعمان: المجالس والمساربات، تحقيق: الحبيب الفقي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧م، ص ١٤٢، سعد زغلول عبد الحميد: المرجع نفسه، ج ٣، ص ٩٢.

^٣ - ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة- عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٩٨٠م، ص ٤١، ومن المعروف أن العلم بالنجوم من العلوم الشائعة عند العرب منذ العصور القديمة فهناك عدة أبراج بأسماء متعددة منها: (برج الحمل و برج العقرب وغيرها)، وعدة طالع ولكل منها قياس ما بالنسبة للشمس وبقية النجوم، وللمزيد انظر: الأصفهاني: الأزمنة والأمكنة، بيروت، دبت، ج ١، ص ١٢.

^٤ - القاضي النعمان: المجالس والمساربات، ص ١٣١.

^٥ - عبد الستار عثمان: موسوعة العمارة الفاطمية، دار القاهرة، ط ١، القاهرة ٢٠٠٦م، ج ١، ص ١٥.

وصاحبه ، ولعل أوضح مثال على ذلك في العصور الإسلامية، ما فعله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عند إنشائه لمدينة بغداد، فقد استشار الفلكيين لاختيار طالع سعيد لوضع أساس المدينة^(١)، وسار المهدي الفاطمي على دربه في ذلك مع وجود اختلاف مذهبي بينهما، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الحضارة العربية الإسلامية لها خاصية مميزة وهي "التنوع في إطار الوحدة"^(٢).

وخلاصة القول في هذا، أن الروايات المتعددة والتي شابها الكثير من الميثولوجيا، بالنسبة لبناء مدينة المهديّة واختطاطها ، لم تختلف كثيراً عن غيرها من المدن المغربية منها والمشرقية، وذلك بسبب رسوخ هذه الخاصية التي ورثتها الحضارة الإسلامية عن سابقتها من الحضارات، فكان لابد من وجود بعد ديني لتأسيس الكثير من المدن الذي يعطي لها ولمؤسسيها قدسية خاصة، فكانت تلك الروايات مصدراً مهماً وأثراً ثابتاً لمعظم الدراسات التاريخية رغم ما شابها من الخروج عن المنطق العقلاني أحياناً، وقدمت مادة تاريخية ثرية للكثير من الدراسات التي اهتمت بالمدن وتأسيسها، وقد امتازت الروايات التي تحدثت عن تأسيس مدينة المهديّة بالتوافق، سواء كانت روايات شيعية إسماعيلية أم روايات سنية، مع وجود اختلاف مذهبي بينهما في كثير من المواقف الأخرى، وهذا يؤكد ما ذكر آنفاً من القول بأن الحضارة العربية الإسلامية تتسم بالوحدة على الرغم من الحزازات المذهبية والصراع السياسي .

^١ - البعقوبي: البلدان، ليدن ١٨٩١م، ج ١، ص ٣.

^٢ - محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الكويت ١٩٩٠م، ص ١٧٢.

وبذلك انتقل عبيد الله المهدي إلى حاضرتة الجديدة في سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠ م ، عندما انتهى من بناء القصور وسور المدينة وبعض مساكن حاشيته ، ويبدو أن عبيد الله المهدي كان يفضل الرحيل إلى المهديّة بعد استكمال مرافقها كافة ولكنه اضطر إلى سرعة الإنتقال بسبب الأمطار الغزيرة التي سقطت على مدينة رقادة والقيروان في تلك السنة، وتهدمت الكثير من المباني فيهما^(١) .

١ - ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص١٨٤.

المصادر والمراجع:

١- الأصفهاني (أبو الفرج حسن بن علي الحسن بن محمد،
ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م): الأزمنة والأمكنة، بيروت، د.ت.

٢- ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن بن أبي الكرم علي،
ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله
القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٤م.

٣- ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن علي، ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م): أخبار
ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة- عبد الحليم عويس،
دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٩٨٠م.

٤- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي،
ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) المقدمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة
٢٠٠٦م.

٥- التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد، ت بعد ٧١٧هـ/١٣١٧م):
رحلة التجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية
للكتاب، ليبيا ١٩٨٠م.

٦- ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني،
ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، المكتبة
العتيقة، تونس ١٩٦٧م.

- ٧- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله المصري، ت٢٥٧هـ/٨٧٠م) : فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبد المنعم العامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م
- ٨- ابن عذارى المراكشي (كان حياً ٧١٢هـ/١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، منشورات دار الثقافة، بيروت ، ١٩٩٨، ط٥.
- ٩- القاضي النعمان (أبو حنيفة النعمان بن حيون المغربي التميمي، ت٣٦٣هـ/٩٧٣م) : كتاب افتتاح الدعوة ،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٥ .
- ١٠- _____:المجالس والمسائرات، تحقيق: الحبيب الفقي وأخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧م.
- ١١- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد المروفي بالبشاري، ت٣٨٨هـ/٩٩٨م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد ط٢، عن لين ١٩٠٦م.
- ١٢- المقرئزي (تقي الدين بن أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) : تعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ط٣، ٢٠٠٥م.
- ١٣- ياقوت الحموي(شهاب الدين أبي عبد الله، ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، منشورات دار صادر، بيروت ١٩٨٤م.
- ١٤- اليعقوبي(أحمد بن يحيى بن أبي يعقوب، ت٢٩٢هـ/٩٠٤م): البلدان، لين ١٨٩١م.

المراجع :

- ١- حباني محمد: خصائص الفن المغربية في عصر الدول المستقلة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس ١٩٨٧م.
- ٢- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧٩ م خمسة أجزاء
- ٣- عبد الستار عثمان: موسوعة العمارة الفاطمية، دار القاهرة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦مجزآن.
- ٤- محمد المرزوقي: المهدية وشاعرها تميم، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس ١٩٨٠م .
- ٥- محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت ١٩٩٠م، ص١٧٢.
- ٦- محمود إسماعيل: حواضر المغرب الإسلامي في ضوء الميثولوجيا، مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الثالث، الكويت ٢٠٠٧م .

